

الباب الثاني عشر

العمل والثروة في أثينة

الفضل الأول

الأرض والطعام

كان الأساس الذي يقوم عليه صرح هذه الديمقراطية وهذه الثقافة هو إنتاج الطعام والثروة وتوزيعهما بين الناس . ذلك أن من يقومون من الناس بحكم الدول ، والبحث عن الحقيقة ، وتأليف الألحان الموسيقية ، ونحت التماثيل ، وإبداع الصور ، وتأليف الكتب ، وتعليم الأطفال ، وخدمة الآلهة ، إنما يستطيعون هذا لأن غيرهم يكدهون لإنتاج الطعام ، ونسج الثياب ، وبناء المساكن ، واستخراج المعادن ، وصنع الأدوات النافعة ، ونقل البضائع ، واستبدال غيرها بها ، أو تقديم الأموال اللازمة لإنتاجها أو نقلها . هذا هو أساس الديمقراطية والثقافة في كل مكان .

وعماد المجتمع هو الفلاح أفقر الناس فيه وألزمهم له . ولقد كان الفلاح في أتكا يستمتع على الأقل بحقوقه السياسية : ذلك أن المواطنين وحدهم هم الذين كانوا يحق لهم أن يمتلكوا الأرض وكان الفلاحون جميعهم تقريباً يمتلكون الأرض التي يفلحونها ؛ وكان نظام امتلاك العشيرة كلها للأرض قد اختفى ، واستقر نظام الملكية الفردية وتوطدت أركانه . وكانت هذه الطبقة من صغار الملاك في أتكا ، كما هي الآن في فرنسا وأهريك ، قوة محافظة تعمل على الاستقرار

في الديمقراطية ، على حين أن سكان المدن الذين لا ملك لهم كانوا يدفعون الدولة على الدوام نحو الإصلاح والتغيير . وكانت نار الحرب القديمة العهد بين الريف والمدينة - بين الذين يريدون أثماناً عالية للغلات الزراعية وأثماناً منخفضة للسلع المصنوعة ، وبين الذين يطلبون أثماناً منخفضة للسلع المصنوعة وأجوراً عالية أو أرباحاً كبيرة في مجال الصناعة - كانت نار هذه الحرب شديدة الاستمرار في أتكا بنوع خاص . وبينما كانت الصناعة والتجارة تعدان من أعمال العامة التي تزرى بصاحبها في نظر المواطن الأثيني ، كانت الأعمال الزراعية في اعتقاده مشرفة للمشتغل بها لأنها أساس الاقتصاد القومي ، والخلق الشخصي القويم وقوة البلاد الحربية ؛ وكان أهل الريف ينزعون إلى احتقار سكان المدن ويرون أنهم إما طفيليون مستضعفون أو عبيد أدنياء^(١) .

وتربة أتكا غير خصيبة : فثلث مساحتها البالغ قدرها ٦٣٠٠٠٠ فدان إنجليزي غير صالح للزراعة ، والثلاثان الباقيان قد أفقر تربتهما تقطيع الغابات ، وانحباس الأمطار ، وسرعة اكتساح فيضانات الشتاء للطبقة الحصبة السطحية • ولم يكن الفلاحون في أتكا يدخرون جهداً - يبذلونه هم أو أرقاؤهم - للتغلب على هذا الحظ النكد ، فكانوا يدخرون ما زاد من الماء على حاجتهم في خزانات ويقيمون الجسور حول المجارى المائية للسيطرة على فيضاناتها ، ويجففون المستنقعات ويستصلحون أرضها الطيبة ، ويحفرن الآلاف من قنوات الري لتحمل إلى حقولهم الظمأى قطرات الماء من النهرات ، ولا يملون من نقل النبات من بيثة إلى بيثة ليحسنوا نوعه ويزيدوا حجمه ، ويتركون الأرض بوراً مرة كل سنتين لتستعيد قدرتها على الإنتاج ، ويجعلون التربة قلوية بإضافة بعض الأملاح إليها مثل كبرونات الجير ، ويسمدونها بنترات البوتاسيوم ، والرماد ، وفضلات الآدميين^(٢) . وكانت الحدائق والغياض المحيطة بأثينة تستفيد أكبر الفائدة من مجارى المدينة التي كانت

تصب كلها في مجرى كبير متصل بخزان عام خارج ديليون Dipyion ، ثم ينتقل ماؤها من هذا الخزان في قناة مبنية بالآجر إلى وادي نهر سفوس Cephisus^(٣) . وكانوا يخلطون أنواعاً مختلفة من التربة بعضها ببعض ليفيد كل نوع منها من الآخر ، وكانوا يحرثون الأرض وبعض الخضر البقولية مزهرة فيها لكي تتغذى منها التربة ؛ وكانت الأعمال المتصلة بمرث الأرض وتمهيدها ، وبذر البنور أو غرس النبات ، تجرى كلها في فترة الحريف القصيرة ، وكان موسم جنى الحبوب يحل في شهر مايو ، وأما فصل الصيف الجفاف فكان موسم الاستعداد والراحة . ومع هذه العناية كلها فإن أرض أتكا لم تكن تنتج إلا ٦٥٧,٠٠٠ بشل من الحبوب في كل عام لاتكاد تكفي ربع سكانها ؛ ولولا الطعام المستورد من الخارج لهلكت أئينة بركليز جوعاً ؛ وكان هذا هو الذي دفعها إلى الاستعمار وأوجب عليها أن تنشئ لها أسطولا قوياً تسيطر به على البحار .

وحاول الريف أن يستعويض عن محصوله الضئيل من الحبوب بمحصول موفور من الزيتون والعنب . فدُرِّجت جوانب التلال وأجريت لها المياه ، وكانت الحُمُر تشجع على قرض أغصان الكروم بأنيابها لتزيد بذلك ثمارها^(٤) . وكانت أشجار الزيتون تغطي كثيراً من الأراضي في بلاد اليونان في أيام بركليز ، ولكن الفضل في نقل أشجار الزيتون إلى هذه البلاد يعود إلى پيسستراتس وصولون . ذلك أن شجرة الزيتون لاتؤتي أكلها إلا بعد ستة عشر عاماً من زرعها ، ولا يكتمل نموها إلا بعد أربعين ؛ ولولا ما أمد به پيسستراتس الزراعة من إعانات لما نمت تلك الشجرة في أرض أتكا . ولقد كان إتلاف بساتين الزيتون في حرب الپلوبيونيز من الأسباب التي أدت إلى اضمحلال أئينة . والزيتون ذو فوائد كثيرة لليوناني ، فعصرته الأولى تمده بالزيت يأكله ، والثانية تمده بالزيت يدهن به ، والثالثة تعطيه زيتاً يضيء به بيته ؛ وما بقي منه بعدئذ يتخذ وقوداً^(٥) . وكان الزيتون

أثمن غلات أتكا في عصر پركليز ، وقد بلغ من عظم شأنه أن احتكرت الدولة تصديره ، وأن ابتاعت به وبالنييد ما كانت تضطر إلى استيراده من الحبوب : وكانت تحرم تصدير التين تحريما باتا ، لأن التين من أهم مصادر القوة والنشاط لأهل البلاد . وشجرة التين تنمو وترعرع حتى في التربة الجلباء ، وجلورها الكثيرة الانتشار تمتص كل ما عساه أن يوجد في التربة من ماء ، وأوراقها القليلة الصغيرة لا تعرضها للبخر الكثير . وفضلا عن هذا فإن زارع شجر التين قد تعلم من بلاد الشرق سر إنضاج ثماره بالتلقيح ؛ فكان يعلق أغصان شجرة التين البرية الذكر ، بين أغصان الشجرة الأنثى المنزرعة ، ويترك للحشرات نقل الطلع من الذكر إلى ثمار الأنثى فتزيد في الحجم والحلاوة .

وكانت هذه الغلات الزراعية من الحبوب ، وزيت الزيتون ، والتين ، والعب ، والنييد ، أهم المواد الغذائية في أتكا . ولم تكن تربية الماشية موردا للطعام خليقا بالذكر ؛ وكانت الخيول تربي لتستخدم في السباق ، والأغنام لتؤخذ منها الأصواف ، والمعز اللبن ، والحمير ، والبغال ، والبقر ، والثيران للنقل ؛ أما الخنازير فكانت تربي بكثرة ليؤكل لحمها ؛ وكانوا يعنون بتربية النحل للانتفاع بعسله في عالم خلو من السكر . وكان اللحم من مواد الترف ، لا يطعمه الفقراء إلا في أيام الأعياد ، وقد اختفت العهد الذي نتحدث عنه مآدب الأبطال التي كانت تقام في العصر الهومري . أما السمك فكان طعاما عاديا وممتعة في آن واحد ؛ كان الفقير يتناعه مملحا ومجففا ، والغنى يستمتع بلحم « القرش » « وثعبان البحر » طازجا (٦٦) . وكانت الحبوب تطعم سليقة ، وخبزا ، وكعكا ، وكثيرا ما كانت تخلط بعسل النحل . وقلما كان الخبز والكعك يسويان في المنزل ؛ بل كان كلاهما يشتري من بائعات جائلات أو من حوانيت صغيرة ، وكانوا يضيفون إليهما البيض ، والحضر — وخاصة الفاصوليا ، والبسلة ، والكرنب ، والعدس .

والخس ، والبصل ، والنوم . وكانت الفاكهة قليلة ؛ ولم يكن البرتقال والليمون من الفاكهة المعروفة . وكان الثقل من الأصناف المعروفة والتوابل كثيرة الانتشار ، وكان الملح يجمع من ملاحات البحر ويشتري به العيد من داخل البلاد ؛ وكانوا يصفون العيد الرخيص بأنه « مملح » والعيد الطيب بأنه « جدير بملحه » . وكان كل شيء تقريبا يطهى ويجهز بتارزيت الزيتون وهو بديل ممتاز للبتروول . وإذا كان من الصعب الاحتفاظ بالزبد طويلا في بلاد البحر الأبيض المتوسط فإن زيت الزيتون كان يستخدم بدلا منه . وكان يتفكه بعد الأكل بالعسل ، والحلوى والخبز . وبلغ من حبهم للكعك المحشو بالخبز أن دبجوا كثيرا من الوسائل القيمة في وصف هذا الفن الخفي (٧) . وكان الماء شرابهم العادي ، ولكن ما من دار كانت تخلو من النبيذ ، لأنه ما من مدينة أطاقت الحياة من غير المخدرات أو المنهات . وكانوا يحتفظون في الأرض بالثلج والجليد الطبيعيين ليبردوا بهما النبيذ في أشهر القيظ (٨) ؛ وكانوا يعرفون الجمعة في عصر يركليز ولكنهم كانوا يحتقرونها . واليوناني بوجه عام مقصد في طعامه يقتنع بوجبتين في اليوم ، ويقول أبقرات : « ومع هذا فثمة كثيرون يستطيعون أن يطيقوا ثلاث وجبات كاملة في اليوم إذا تعودوا هذا (٩) » .

الفصل الثاني

الصناعة

كانت أرض أتكنا تنتج المعادن والوقود كما تنتج الطعام ، وكان الأهليون يضيفون بيوتهم بمصاييح جميلة المنظر ، ومشاعل يستخدمون فيها زيت الزيتون المكرر أو الراتينج - أو بالشموع . وكانوا يبدقون بالخشب الجاف أو الفحم الخشبي ، يحرقونه في مواقد متقلبة . وقد عريت الغابات والتلال القريبة من المدن لكثرة ما قطع من أشجارها للوقود والبناء ، حتى أضحت البلاد في القرن الخامس قبل الميلاد تستورد الخشب الذي تحتاجه لبناء البيوت والسفن وصنع الأثاث . أما الفحم الحجري فلم يكن له وجود .

ولم يكن الغرض من التعدين في بلاد اليونان الحصول على الوقود ، بل كان غرضه استخراج المعادن ، وكانت أرض أتكنا غنية بالرخام ، والحديد ، والخارصين ، والفضة ، والرصاص . وكانت مناجم لوريوم القريبة من الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة « فوارة تندفع منها الفضة ، لأثينة » كما يقول إسكلس . وكانت هذه المناجم أكبر ما تعتمد عليه الحكومة ، فكانت تحتفظ لنفسها بملكية كل مات التربة ، وتؤجر المناجم إلى من يستغلها من الأفراد نظير أجر محدد قدره وزنة (تالنت أي ٦٠٠٠ ريال أمريكي) وجزء من أربعة وعشرين جزءاً من ثلثها في العام (١١) . ولما اكتشفت أولى العروق المرعبة في لوريوم عام ٤٨٣ هرع الناس إلى إقليم المناجم لاستخراج الفضة . ولم يكن يسمح لغير المواطنين بأن يستأجروا لك المناجم ، ولم يكن يقوم بالعمل فيها سوى العبيد . وكان نيشياس Nicias التقي ، الذي ساعد بحرفاته على خراب أثينة ، يكسب ما يعادل

مائة وسبعين ريالاً أمريكياً في اليوم الواحد بتأجير ألف عبد إلى مستغل المناجم بما لا يزيد على أبولة واحدة ($\frac{٧}{١٠}$ من الريال الأمريكي) لكل منهم في اليوم ، وما أكثر الثروات التي جمعها الأثنيون بهذه الطريقة ، أو بإقراض الأموال اللازمة لهذا الاستغلال . وكان عدد العبيد في المنجم يبلغ أحياناً عشرين ألفاً ، وكان منهم المشرفون عليهم والمهندسون . وكانوا يعملون في نوبات تطول كل منها إلى عشر ساعات ، ولم يكن العمل ينقطع ليلاً أو نهاراً ؛ فإذا ما تباطأ العبد أو استراح ألهب المشرف عليه ظهره بالسوط ، وإن حاول الهرب صفد بأغلال من حديد ، وإذا هرب وألقي القبض عليه كويت جبهته بالحديد المسمى (١٢) . ولم يكن عرض المنجم يزيد على قدمين ، ولم يكن ارتفاعه يتجاوز ثلاث أقدام ، وكان العبيد يعملون فيه بالمتعب أو الإزميل والمطرقة ، وهم جاثون على ركبهم ، أو منبطحون على بطونهم ، أو مستقلون على ظهورهم (١٣) . وكانت الحامات بعد تكسيرها تنقل في سلال أو أكياس يتناولها رجل من رجل ؛ لأن الممرات لشدة ضيقها لا تسمع لائنين أن يمر أحدهما بالآخر بسهولة . وكانت الأرباح التي تجني من هذه المناجم غاية في الضخامة . وحسبنا دليلاً على هذا أن إتاوة الحكومة منها بلغت في عام ٤٨٣ مائة وزنة (نحو ٦٠٠٠٠٠ ريال أمريكي) - وهي ثروة رزقتها أثينة من حيث لا يحتسب واستطاعت أن تفتني بها أسطولا تنقل به بلاد اليونان كلها عند سلاميس . ولقد عاد هذا العمل بالخير والشر معاً حتى على غير العبيد ؛ فقد أصبحت خزانة أثينة بسببه تعتمد كل الاعتماد على المناجم ؛ فلما أن استولى الإسبارطيون على لوريوم في حرب البلوونيز ، اضطربت أحوال أثينة الاقتصادية من أولها إلى آخرها ، ولما نصب معين المناجم في القرن الرابع كان نضوبها أحد العوامل الكثيرة في اضمحلال أثينة ، وذلك لأن أرض أتكا ليس فيها معدن ثمين غير الفضة .

وصناعة التعدين تتقدم بتقديم استخراجها . فكانت الخامات المستخرجة من مناجم لوريوم تدق في مهارس ضخمة بمدقات ثقيلة من الحديد يحركها العبيد ، ثم تنقل بعدئذ إلى مطاحن تطحنها بين حجرين دوارين شديدي الصلابة ، ثم تغربل ويؤخذ ما ينزل من ثقوب الغربال إلى حيث يغسل ، فيوضع على مناخذ مائلة مستطيلة الشكل مصنوعة من الحجر ومغطاة بطبقة رفيعة ملساء من الأسمنت الصلب ويسلط عليه شويوب ماء من حوض . ويندفع تيار الماء ثم ينثني بزوايا حادة عندها فجوات تلتقط جزئيات المعدن . ثم يؤخذ ما يتجمع منه فيها ويلقى في أفران للصهر بجهزة بمنافخ ترفع حرارتها . وفي قاع كل فرن فتحات ينزل منها المعدن المصهور . ويفصل الرصاص من الفضة برفع حرارة المعدن المصهور فوق يواتق مصنوعة من مادة مسامية وتعريضه بعد ذاك للهواء . وبهذه الطريقة السهلة يتحول الرصاص إلى أكسيد الرصاص وتخلص الفضة . وقد برع العمال في عمليتي الصهر والتنقية ، كما تشهد بذلك العملة الفضية الأثينية ، فإن فضتها نقية إلى درجة ٩٨ في المائة . ولقد أدت لوريوم ثمن ما أنتجته من الثروة ، لأن صناعة التعدين تجلب في أعقابها أضراراً تذهب بكثير من أرباحها . فالنبات يموت والناس يهلكون بتأثير الدخان المنبعث من الأفران ، والأماكن المجاورة للمصانع تصبح فقراء جدباء يغطيها التراب والرماد(١٤) .

أما غير هذه الصناعة فلا يكلف من الجهد ما تكلفه ، وفي أتنا الآن كثير من هذه الصناعات غير المحمودة ، وهي وإن كانت صغيرة في حجمها دقيقة شديدة التخصص في نوعها ، فبقد كانت تستخرج الرخام وغيره من الحجارة من محاجرها ، وتصنع آلافاً من أشكال الآنية الخزفية ، وكانت تدبغ الجلود في مدايق كبيرة كالتى يمتلكها كليون منافس بركليز وأيتيس الذى وجه التهمة إلى سقراط . وكان من أهلها فوق ذلك صانعو العربات ، وبناء السفن وصانعو السروج وسائر عدد الخيل ،

والخدّاءون ، وكان من صانعي السروج من لا يصنعون إلا الأعنة ومن الخدّائين من اختصوا بصنع أحذية الرجال أو النساء^(١٥) . وكان من المشتغلين بحرف البناء نجارون وصانعون للقوالب ، وقاطعون للأحجار ، ومشتغلون بالمعادن ، ومصورون ، وطالون للجدران والأخشاب . وكان فيها حدادون وصانعون للأسياف والدروع ، والمصايح ، والقيثارات ، والطحانون ، والخبازون ، والوزامون ، والسماكون - وجملة القول أنها كانت تحتوى على كل ما تطلبه الحياة الاقتصادية الكثيرة العمل المتنوعة الأشكال ، غير الآلية أو المملة . وكانت المنسوجات العادية لا تزال حتى ذلك الوقت تنسج في المنازل ، ففيها كان النساء ينسجن ، ويصلحن ثياب الأسرة وفراشها ، ومنهن من يمشطن الصوف أو يدرن عجلة الغزل ، ومنهن من يتعهدن الأنوال ومن ينحنين أمام إطار التطريز . أما المنسوجات الخاصة فكانت تشتري من المصانع أو تستورد من خارج البلاد - فالأقمشة التيلية الرقيقة كانت ترد من مصر ، وأمرجوس Amorgos ، وتارتتم ؛ والأقمشة الصوفية المصبوغة من سراقوصة ، والبطاطين ، من كورنثة ، والطنافس من الشرق الأدنى وقرطاجنة ، وأغطية الفراش الملونة من قبرص ؛ وتعلمت نساء كوس في أواخر القرن الرابع حل شرائق دود القز وغزل خيوط الحرير^(١٦) . وأتقنت النساء في بعض المنازل فنون النسيج إتقاناً أمكنهن أن ينتجن أكثر من حاجة أسرهن ، فكن يبعن ما زاد على حاجتهن إلى المستهلكين في بادئ الأمر ، ثم إلى الوسطاء ؛ وكن يستعن بمن يساعدهن من المعاتيق أو الأرقاء ، ونشأت على هذا النحو صناعة منزلية كانت هي الخطوة الأولى في سبيل نظام المصانع .

بدأ هذا النظام يتشكل في عصر بركليز ، وكان بركليز نفسه ، كما كان ألسبيديز ، يمتلك مصنعا^(١٧) ، ولم تكن هناك آلات ، ولكن كان في الاستطاعة الحصول على كثير من العبيد ؛ وكان رخص القوة العضلية سبباً في انعدام الحافز

إلى صنع الآلات ؛ ولهذا كانت دور الصناعة في أثينة « حوانيت صناعة » لا مصانع ، ولم يكن في أكبرها ، وهو حانوت صنع الدرود الذي يمتلكه سفالوس Cephalus ، سوى مائة وعشرين عاملاً ، وكان في دار صنع الأحذية التي يمتلكها تمركوس Timarchus عشرة عمال ، وفي مصنع دمسيتين للأساس عشرون ؛ وفي مصنعه للعدد الحربية ثلاثون (١٨) . ولم تكن هذه الحوانيت في بادئ الأمر تنتج إلا لمن يطلب الإنتاج ، ثم صارت فيما بعد تنتج للسوق ، ثم للتصدير في آخر الأمر ؛ وكان حلول النقود محل المقايضة ، وانتشار هذه النقود انتشاراً واسعاً ، مما يسر عليها أعمالها . ولم تكن في البلاد منظمات صناعية ، بل كان كل مصنع وحدة مستقلة بذاتها يمتلكها رجل أو رجلان ، وكان صاحبه يعمل في كثير من الأحيان إلى جانب عيده . ولم تكن لديهم علامات تجارية ، وكانت الحرف يأخذها الأبناء من الآباء ، أو يتعلمها الصبيان عن الرؤساء ؛ وكان القانون يعنى الأثينيين من رعاية آباؤهم في شيخوختهم إذا لم يعلمهم أولئك الآباء حرفة يشتغلون بها (١٩) . وكانت ساعات العمل كثيرة ، ولكنهم كانوا يعملون على مهل ، فكان صاحب المصنع وعماله يعملون من مطلع الفجر إلى ما بعد غروب الشمس ، مع إغفاءة قصيرة في وقت الظهيرة صيفاً . ولم تكن هناك إجازات ولكنهم كانت لهم في كل عام ستون عيداً ينقطعون فيها عن العمل .

الفصل الثالث

التجارة والمال

إذا أنتج الفرد ، أو الأسرة ، أو المدينة أكثر من حاجته أو حاجتها ، نشأت التجارة : وكانت أولى الصعاب التي واجهت أتكا أن وسائل النقل فيها كثيرة النفقة غير متيسرة ، وأن البحر شراك ليس من السهل على سفنها أن تفلت منه . وكانت أحسن طرقها البرية هي الطريق المقدسة الممتدة من أثينة إلى إليوسيس ؛ وإن لم تكن أكثر من طين ، وإن كانت أضيق من أن تتسع لمرور المركبات . أما القناطر فلم تكن أكثر من معابر غير مأمونة مقامة من حواجز من الطين كثيراً ما تجرفها الفيضانات . وكان حيوان البحر المألوف هو الثور وهو حيوان أوثق من الفلسفة أكثر مما يسمح له بأن يغني التاجر الذي يعتمد عليه في نقل متاجره . وكانت العربات هشة تتحطم على الدوام أو تتعطل عن السير في الوحل وكان أفضل منها لديه أن ينقل بضاعته على ظهور البغال ، لأنها أسرع من العربات قليلاً ، ولأنها لا تشغل ما تشغله تلك العربات من الطريق . ولم يكن في بلاد اليونان نظام للبريد ؛ وحتى الحكومات نفسها لم يكن لها مثل هذا النظام ، بل كانت تقنع بالعدائين ؛ وكانت الرسائل الخاصة تنتظر إلى أن يتاح لها من ينقلها منهم . وكانت الأخبار الهامة ترسل بالإشارات النارية يتلقفها تل من تل أو بالحمام الزاجل^(٢٠) . وكانت في أماكن متفرقة من الطرق نزل ، ولكنها كانت مأوى محببة للصوّص والحشرات ؛ وحتى الإله ديونيسس في إحدى مسرحيات أرسطوفان يسأل هرقل عن « بيوت الأكل ودور الضيافة التي هي أقل من غيرها بقا^(٢١) » .

وكان النقل البحري أقل كلفة من النقل البري وبخاصة إذا اقتصر على أشهر الصيف الساكنة الريح ، وكان هذا النقل في العادة مقصوراً على تلك الشهور . وكانت أجور السفر قليلة ، فكان في وسع الأسرة أن تنتقل من يريه إلى مصر وإلى البحر الأسود نظير درخمتين (أى ريالين أمريكيين^(٢٣)) ، ولكن السفن لم تكن تعنى بنقل المسافرين لأنها صنعت قبل كل شيء لنقل البضائع أو لشحن الحرب أو لهذا الغرض أو ذلك كما تقضى الضرورة . وكانت أهم القوى المحركة هي قوة الريح تملأ الشراع ، ولكن العبيد كانوا يسيرون السفن بالمجاديف إذا سكنت الريح أو هبت في عكس اتجاه السفن . وكانت أصغر سفن البحار التجارية يسيرها ثلاثون مجدافاً ، ومنها ما كان له خمسون : وأنزل أهل كورنثة في البحر منذ عام ٧٠٠ قبل الميلاد أول السفن ذات الثلاثة الصفوف من المجاديف يعمل بها مائتان من الرجال . وقبل أن يستهل القرن الخامس كانت هذه السفن بمقدمها الطويل السامق قد بلغ وزنها ٢٥٦ طناً ، وبلغت حمولتها سبعة آلاف بشل من الحبوب ، وأصبحت حديث جميع القاطنين على شواطئ البحر الأبيض المتوسط لأن سرعتها بلغت ثمانية أميال في الساعة^(٢٣) .

وكانت ثانی مشاكل التجارة هي العثور على واسطة للتبادل يثق الناس بها ، فقد كان لكل مدينة نظامها الخاص في الموازين والمقاييس ، وعملتها التي لا تشاركها فيها مدينة أخرى . وكان على الإنسان عندما يصل إلى أحد التخوم التي تكاد تبلغ المائة عدداً أن يبدل نقوده وأن يكون على حذر في هذا التبدل لأن كل حكومة يونانية ، عدا حكومة أثينة ، كانت تسلب الأجانب عنها أموالهم بتخفيض قيمة نقدها^(٢٤) . وفي ذلك يقول يوناني لم يشأ أن يُعرف اسمه « كان التجار في معظم المدن يضطرون أن ينقلوا على سفنهم بضائع وهم عائدون إلى مدنهم لأنهم لم يكن في وسعهم أن يحصلوا على نقود ذات نفع

لم في أى مكان آخر^(٢٥) . وكانت بعض المدن تسك نقوداً من خليط من الذهب والفضة ، ويناغس بعضها بعضاً في إنقاص ما في هذا الخليط من الذهب . أما الحكومة الأثينية منذ أيام صولون فقد أخذت على نفسها تشجيع التجارة إلى أقصى حد بإيجاد عملة موثوق بها طبعت عليها بومة أثينة ؛ وكان قولهم : « يأخذ البوم إلى أثينة » هو المثل اليونانى المقابل لقول الإنجليز « يحمل الفحم إلى (*) نيوكاسل^(٢٦) » وإذا كانت أثينة قد أبت خلال صروف الدهر أن تخفيض من قيمة درختها الفضية ، فقد كانت سائر بلاد البحر الأبيض المتوسط تقبل وهى راضية هذه « البومات » التى أخذت تحمل شيئاً فشيئاً محل العملة المحلية في جزائر بحر إيجه ، وكان الذهب في هذه المرحلة لا يزال سلعة تجارية تباع بالوزن ، ولم يكن وسيلة يستعان بها على الاتجار ؛ ولم تكن أثينة تسكه عملة إلا في حالات الضرورة النادرة ، وكانت النسبة المعتادة بينه وبين الفضة كنسبة ١٤ إلى ١^(٢٧) . وكانت أصغر النقود الأثينية تسك من النحاس ، وكانت ثمان قطع منها تكون أبولة - وهى عملة من الحديد أو البرنز سميت بهذا الاسم لمشابتها للأظافر أو للسفود . وكانت ست أبولات تكون الدرخة أى الحفنة ؛ والدرختان تكونان استاتر Statar والمائة درخة تكون مينا Mina ، وستون مينا تكون وزنة Talent . وكانت الدرخة في النصف الأول من القرن الخامس يبتاع بها بشل Bushel من الحبوب كما يبتاع الريال الأمريكى في القرن^(**) العشرين^(٢٨) . ولم يكن في أثينة عملة ورقية ، ولا صكوك حكومية ، ولا شركات محاصة ، ولا مصفق للأسهم والسندات .

(*) والمقابل للمثل العربى ائائل « كبائع التمر إلى هجر » . (المترجم)

(**) احتسبنا الأبولة في هذا المجلد مساوية في قوتها الشرائية لسبعة عشر جزءاً من مائة جزء من ريال الولايات المتحدة في عام ١٩٣٨ ، واحتسبنا قيمة الدرخة ريالاً وقيمة الوزنة ٦٠٠٠ ريال . وذلك كله تقريبي بطبيعة الحال لأن الأثمان كانت مطردة الارتفاع طوال اتاريخ اليونانى . انظر الفصل الخامس من هذا الباب .

لكن أثبتة كان فيها مصارف مالية لاقت صعاباً شديدة في توطيد دعائمها لأن الذين لم تكن بهم حاجة إلى القروض ينددون بالربا ويرونه جريمة(*) ، ويتفق معهم الفلاسفة في هذا الحكم . وكان الأثيني العادى في القرن الخامس ممن يكتزون المال ، فكان إذا ادخر شيئاً منه آثر أن يخبئه بدل أن يودعه في المصارف . وكان بعض الناس يقرضون مدخراتهم نفاير فائدة تراوح بين ١٦ ، ١٨ في المائة ، ومنهم من يقرضونها من غير وهون بغائدة إلى أصدقائهم ، أو يودعونها في خزائن الهياكل . وكانت الهياكل تعمل عمل المصارف فتقرض المال إلى الأفراد والحكومات بغائدة معتدلة ، وكان هيكل أبلو في دلفى إلى حد ما مصرفاً دولياً لجميع بلاد اليونان . ولم تكن الحكومات تقرض من الأفراد ، ولكن الدول كانت في بعض الأحيان يقرض بعضها بعضاً . وفي القرن الخامس بدأ مبدل النقود الجالس أمام منصدته (طريزته Trapeza) يقبل المال وديعة لديه ، ويقرضه للتجار بفوائد يتراوح سعرها بين ١٢ ، و ٣٠ في المائة حسب ما تتعرض له من الأخطار . وبهذه الطريقة أصبح ذلك الصراف مصرفياً ، وإن كان قد احتفظ إلى آخر تاريخ اليونان باسمه الأول (صاحب المنصدة trapezite) . وقد أخذ أساليبه عن بلاد الشرق الأدنى ، وحسنها ، ونقلها إلى رومة فأسلمتها هذه إلى أوروبا الحديثة . وما كادت الحرب الفارسية تضع أوزارها حتى أودع ثمستكليز سبعين وزنة (٤٢٠٠٠٠ ريال أمريكى) عند فيلوستفانوس المصرفى ، بنفس الطريقة التى يعمل بها المغامرون السياسيون لدنياهم في هذه الأيام ، وهذه أول إشارة معروفة للأعمال المصرفية خارج المعابد في

(*) ليس الفلاسفة والذين لا يحتاجون إلى القروض هم وحدهم الذين يعدون الربا جريمة ، بل إن كثيرين من علماء الاقتصاد في هذه الأيام يرون فيه أضراراً كثيرة تزيد على منافعه وهم ينددون برأيهم هذا ما جاءت به الأديان السماوية . (المترجم)

تاريخ اليونان . ولما آذن هذا القرن بالانتهاء أنشأ أنتستينز Antisthenes وأرخستراتس المؤسسة التي أصبحت في عهد باسيون Pasion أشهر المصارف اليونانية التي يملكها الأفراد ، وعن طريق هؤلاء الصيارفة كانت الأموال تتداول بحرية وسرعة أكثر من تداولها قبل وجود هذا النظام ، وكانت لهذا تيسر من الأعمال أكثر مما كانت تيسره قبل وجودهم . وبفضل هذا التيسير راجت التجارة الأثينية واتسعت أسواقها ونشطت أكثر من ذي قبل .

وكانت التجارة ، لا الصناعة ولا الأعمال المالية ، روح الاقتصاد الأثيني . ذلك أنه وإن ظل الكثيرون من المنتجين حتى ذلك الوقت يبيعون منتجاتهم إلى المستهلك مباشرة ، فإن عدداً متزايداً منهم كان في حاجة إلى وساطة السوق التي كانت وظيفتها شراء السلع وخزنها حتى يستعد المستهلك لشراؤها . وبهذه الطريقة نشأت طبقة من بائعي التجزئة يعرضون بضائعهم في شوارع المدن ، أو في مؤخرة الجيوش ، أو في الأعياد والاحتفالات العامة ، أو يعرضونها للبيع في حوانيت أو « أكشاك » في الأماكن المزدحمة أو غير المزدحمة في المدن . وكان الأحرار والغرباء والأرقاء يذهبون إلى هذه الأماكن ليساوموا التجار ويبتاعوا ما يحتاجه البيوت . وكان من أفسى القيود المفروضة على النساء والحرائر ، في أثينة أن العادات لم تكن تبيح لهن أن يخرجن إلى الأسواق ليشترين منها حاجتهن .

وتقدمت التجارة الخارجية لبلاد اليونان أسرع من تقدم التجارة الداخلية نفسها ، لأن الدول اليونانية أدركت مزايا توزيع العمل بين بعضها والبعض الآخر فتخصصت كل منها في إنتاج نوع من المنتجات . فصانع الدروع مثلاً لم يعد ينتقل من مدينة إلى مدينة تلبية اطلب من يحتاجه ، بل أخذ يصنع دروعه في حانوته ويبعث بها إلى أسواق العالم القديم . وهكذا انتقلت أثينة في قرن واحد من الاقتصاد المنزلي - الذي يصنع فيه كل منزل

جميع ما يحتاجه تقريباً - إلى الاقتصاد الحضري - الذى تصنع فيه كل مدينة جميع ما يحتاجه تقريباً - ثم إلى الاقتصاد الدولى - الذى تعتمد فيه كل دولة على ما تستورده من غيرها ، والذى لا بد لها فيه أن تصدر من السلع ما تودى به أثمان وارداتها . واستطاع الأسطول الأثينى مدى جيلين من الزمان أن يجعل البحر مطهراً من القراصنة ، ولهذا ازدهرت التجارة من عام ٤٨٠ . إلى ٤٣٠ كما لم تزدهر فى المستقبل إلا بعد أن قضى على القرصنة فى عام ٦٧ . وكانت أرصفة بيرية ، وغازنها ، وأسواقها ومصارفها تقدم للتجارة كل ما تستطيعه من أسباب التيسير : وسرعان ما أضحى هذا الثغر النشط العامل أهم مراكز التصدير وإعادة الشحن للتجارة المتبادلة بين الشرق والغرب . وفى ذلك يقول إسقراط : « لقد كان من اليسير أن يبتاع الإنسان فى أثينة جميع ما يصعب عليه أن يحده إلا فى أماكن متفرقة سلعة منه فى هذه المدينة وسلعة فى تلك »^(٣) . ويقول توكيديديس « إن عظمة مدينتنا تجذب غلات العالم كله إلى مرفئنا ، حتى أصبحت ثمار البلاد الأخرى من مواد الترف المألوفة للأثينى كثمار بلده نفسه »^(٤) . وكان التجار يحملون من بيرية ما تذاجه حقول أنكا وحوانيتها من الخمر ، والزيت ، والصوف ، والمعادن ، والرخام ، والحزف والأسلحة ، ومواد الترف ، والكتب ، والتحف الفنية ؛ ويأتون إلى بيرية بالحبوب من بيزنطية ، وسوريا ، ومصر ، وإيطاليا ، وصقلية ؛ وبالفاكهة والحب من صقلية وفينيقية ، وباللحوم من فينيقية وإيطالية ؛ والسماك من البحر الأسود ؛ والنقل من بفلاجونيا ، والنحاس من قبرص ؛ والقصدير من إنجلترا ؛ والحديد من شواطئ بحر البنس ؛ والذهب من ناسوس وتراقية ؛ والخشب من تراقية وقبرص ؛ والأقمشة المطرزة من بلاد الشرق الأدنى ؛ والصدف والكتان ، والأصبغ من فينيقية ، والتوابل من قورينة ؛ والسيوف من خليديا ؛ والزجاج من مصر ؛ والقرميد من كورنثة ؛ والأسرة من طشيوز وميلطس ؛ والأحذية

والبرونز من إتروريا ، والعاج من بلاد الحبشة ، والعمود والأدهان من بلاد العرب ، والرقيق من ليديا ، وسوريا ، وسكوديا . ولم تكن المستعمرات أسواقاً فحسب ، بل كانت فوق ذلك وكالات شحن ترسل البضائع الأثينية إلى الداخل ، ومع أن مدائن أيونيا قد اضمحلت في القرن الخامس قبل الميلاد لأن التجارة التي كانت تمر بها من قبل تحولت إلى البروبنتس وكاريا أيام الحرب الفارسية وبعدها ، فإن إيطاليا وصقلية قد حللتا محلها وأصبحتا بلادها ثغوراً لتصدير ما زاد على الحاجة من غلات بلاد اليونان الأصلية وسكانها ، وفي وسعنا أن نقدر قيمة تجارة بحر إيجه الخارجية إذا عرفنا أن حصيلة ضريبة الخمسة في المائة المفروضة على صادرات مدن الإمبراطورية الأثينية و وارداتها قد بلغت في عام ٤١٣ ألفاً ومائتي وزنة ، ومعنى هذا أن التجارة قد بلغت قيمتها ١٤٤ر٠٠٠ر٠٠٠ ريال أمريكي في ذلك العام .

وكان الخطر الكامن وراء هذا الرخاء هو اعتماد أثينة اعتماداً متزايداً على الحبوب المستوردة من خارجها ؛ ومن ثم كان حوصها على السيطرة على مضيق الملسينت والبحر الأسود ، وإصرارها على استعمار السواحل والجزائر الواقعة في طريقها إلى المضائق ، وحملتها المشثومة على مصرفي عام ٤٥٩ ، وعلى صقلية في عام ٤١٥ . واعتمادها هذا هو الذي أغراها بتحويل حلف ديولوس إلى إمبراطورية أثينية ؛ ولما أن دمر الإسبارطيون الأسطول الأثيني في مضيق الملسينت عام ٤٠٥ ، كان لا بد أن تعاني أثينة آلام الجوع وأن تستسلم نتيجة لهذا التدمير . غير أن هذه التجارة هي التي جلبت الثراء لأثينة ، وكانت مع خراج إمبراطورتها عماد رقيها الثقافي ، ذلك أن التجار الذين كانوا ينتقلون مع بضائعهم إلى جميع بقاع البحر الأبيض المتوسط كانوا يعودون إليها بنظرات إلى

الحياة تختلف عن نظراتهم قبل خروجهم من بلدهم ، ويعقول متيقظة
متفتحة ؛ وكانوا يأتون معهم بأفكار وأساليب جديدة ، يحطمون بها
القيود القديمة والحمول القديم ، ويستبدلون بالتحفظ الأسرى الذى هو من
طابع الأرسطية الريئية نزعة فردية تقدمية هى طابع الحضارة التجارية .
وفى أثينة التقى الشرق بالغرب وبفضل هذا الالتقاء خرج كلاهما من أساليبه
المألوفة العتيقة ، وفقدت الأساطير القديمة سيطرتها على نفوس الناس ، وزاد
الفراغ ، وشجع البحث ، ونشأ العلم والفلسفة ، وأضحى أثينة أكثر مدن
زمانها حيوية ونشاطاً .

افضل الرابع الأحرار والعيال

ومنذا الذى كان يقوم بهذا العمل كله ؟ لقد كان يقوم به فى الريف المواطنين : أسرمهم وعمال أحرار مأجورون ؛ أما فى أثينة نفسها فكان يؤدى بعضه المواطنون ، وبعضه العتقاء ، ويؤدى الكثير منه الغرباء المهاجرون ، ويؤدى معظمه الأرقاء . ويكاد أصحاب الحوانيت ، والصناع ، والتجار ، ورجال المصارف ، أن يكونوا كلهم من الطبقات التى ليس لها حق الانتخاب ، وكان أهل المدينة ينظرون بعين الاحتقار إلى العمل اليدوى ، ولا يؤدون منه إلا القليل الذى لا بد لهم من أدائه ، لأن العمل لكسب العيش كان فى اعتقادهم يحط من قدر صاحبه ، بل إن الأعمال المهنية ، وتعليم الموسيقى ، والنحت ، والتصوير ، كان فى نظر الكثيرين من اليونان « مهنة ذنيئة(*) » . وهاهو ذا زنونون يتحدث فى زهو وفى غير مجاملة بوصفه واحداً من طبقة الفرسان فيقول :

« إن الجماعات المتمدينة ترى أن ما يسمونه بالفنون الآلية الحقيرة تزدى بصاحبها وهى محقة فى نظرتة هذه ؛ ذلك بأن العمل فيها يهلك أجسام القائمين به ، سواء فهم العمال . ومن يشرفون عليهم ، فهى تضطرهم إلى أن يقضوا وقتهم جالسين فى نور ضئيل أو جاثمين أياماً طوالاً أمام الأفران .

(*) بركليز تأليف لوطرخس ؛ ويرى زمرمان فى كتابه « مجموعة الأمم اليونانية The Greek Commonwealth » ص ٢٧٢ وفرجسون Ferguson فى كتاب « الاستعمار اليونانى » أن احتقار الأثينيين للأعمال اليدوية قد بولغ فى وصفه كثيراً ؛ ولكن جلتز Glotz فى كتابه « بلاد اليونان القديمة تمل Ancient Greece at Work » ص ١٦٠ يقول خلاف هذا .

وهذا الضعف الجسمي يصحبه على الدوام ضعف نفسي ، وفوق هذا وذلك فإن ما تتطلبه هذه الفنون الآلية الحقيمة من الوقت لا يترك للمشتغلين بها فراغاً ينفقونه في مطالب الصداقة أو الدولة (٢٣) :

وكان ينظر إلى التجارة هذه النظرة نفسها ، فكان اليوناني الأرستقراطي النزعة أو الفيلسوف لا يعدها إلا وسيلة لجمع المال مع إلحاق الأذى بمن يجمع منهم ؛ وهي في رأى هذا وذلك لا تثبغى خلق السلع ، بل كل ما تبغيه هو شراؤها رخيصة وبيعها غالية ؛ ولهذا فما من مواطن خلق بالاحترام يرضى أن يعمل فيها وإن كان لا يستنكف أن يستثمر فيها ماله ويربح من هذا الاستثمار ما دام يترك لغيره أن يقوم بالعمل . ويقول اليوناني إن الحر يجب أن يتحرر من الواجبات الاقتصادية ، وإن عليه أن يستخدم العبيد وغيرهم من الناس ليعتنوا بشئونه المادية ، بما في ذلك ، إن استطاع ، العناية بأمواله . وهذا التحرر وحده هو الذي يترك له الوقت الكافي للقيام بأعباء الحكم ، والحرب ، والأدب والفلسفة . فإذا لم توجد هذه الطبقة المتفرغة لهذه الشئون لم يوجد ، كما يرى اليوناني ، ذوق راق ، ولن يكون في البلاد من يشجع الفنون ، ولن تقوم للحضارة قائمة على الإطلاق ؛ ذلك أن من يعمل مسرعاً لا يمكن أن يكون متمديناً بحق .

وكان الغريباء الأحرار ، الذين ولدوا في بلاد أجنبية وانحلوا أثينة موطناً لهم ولكنهم لا يعدون من مواطنيها ، كان هؤلاء الغريباء هم الذين يؤدون في أثينة معظم الأعمال ذات الصلة التاريخية بالطبقة الوسطى ، فكان منهم رجال المهن ، والتجار ، والمقاولون ، والصناع ، والمديرون للأعمال التجارية والصناعية ، وأصحاب الحوانيت ، وأرباب الحرف ، والفنانون ، وقد استقر هؤلاء في أثينة لأنهم وجدوا فيها ، بعد تجوالهم في البلاد الأخرى ، ما ينشدونه من الحرية الاقتصادية وفرص الحياة والحافز على العمل وبذل

الجهود ، وهذه أهم في نظرهم من حق الانتخاب . ولهذا كانت أهم الأعمال الصناعية - خارج نطاق التعدين - ملكاً لهؤلاء الغرباء الأحرار ، فصناعة الخنزف بأكملها كانت في أيديهم ، وكانوا يوجدون كلما استطاع الوسطاء أن يحشروا أنفسهم بين المنتج والمستهلك . وكانت شرائع البلد تضايقهم وتحميمهم ، فكانت تفرض عليهم من الضرائب ما تفرضه على المواطنين ، وتلزهم بأن يؤدوا خدمات شخصية للدولة ، وتخدمهم للخدمة العسكرية ، وكانوا يؤدون لها ضريبة الفرضة ؛ ولكنها كانت تحرم عليهم امتلاك الأرض والزواج من أسر المواطنين ، ولا تسمح لهم بالانضمام إلى الطيئات الدينية أو الالتجاء بأنفسهم إلى المحاكم . ولكنها كانت ترحب بهم في حياتها الاقتصادية ، وتقدر لهم جدهم وحذقهم ، وتنفلد لهم عقودهم ، وترك لهم حريتهم الدينية ، وتحمي أموالهم من الثورات العنيفة . وكان منهم من يباهون بثروتهم مباهاة سمجة ، ولكن كان منهم أيضاً من يشتغلون بالعلوم ، والآداب ، والفنون ، ويمارسون مهنة الطب أو القانون ، أو يفتشون مدارس لتعليم البلاغة والفلسفة ، وهم الذين أمدوا بالمال مؤلفي المسرحيات الهزلية في القرن الرابع ، وكانوا هم موضوع هذه المسرحيات ، وأصبحوا في القرن الثالث هم للمثال المحتذى في آداب المجتمع الهلنستي . وكان حرمانهم من حقوق المواطنة يؤلمهم ويحز في نفوسهم ، ولكنهم كانوا يحبون أئينة ويفخرون بانتسابهم إليها ، ويؤدون على مضض كثيراً من الأموال التي تحتاجها للدفاع عن نفسها ضد أعدائها . ومن مال هذه الطبقة استمد الأسطول معظم حاجته ؛ وكانت هي عماد الإمبراطورية الأثينية ، وبفضلها احتفظت أئينة بتفوقها التجاري على سائر بلاد اليونان .

وكان يشارك الغرباء في الحرمان من بعض الحقوق السياسية ، وفيما يتاح لهم من الفرص الاقتصادية ، العتقاء ، أي الذين كانوا من قبل عبيداً . ذلك أن الأمل في الحرية حافز اقتصادي قوي للعبد الشاب وإن لم يكن من السهل المألوف أن يعتق العبد لأن عبداً آخر يجب أن يحل في العادة محله ؛ لكن كثيرين من اليونان

كانوا إذا قربت منيتهم يكافئون أشد عبيدهم إخلاصاً بعقبتهم . كذلك كان العبد يعتق إذا افتداه أهله أو أصدقائه كما حدث لأفلاطون ؛ أو افتدته الدولة نفسها من سيده نظير خدماته لها في الحرب ؛ وقد يبتاع هو نفسه حريته بما يسخره من الأبولات . وكان العبد المحرر يعمل ، كما يعمل الغريب السالف الذكر ، في الصناعة والتجارة والشئون المالية . وكان أقل ما يقوم به من الأعمال شأناً هو أداء عمل العبد نظير أجر ؛ وكان أعظم ما يبلغه هو أن يكون صاحب إحدى الصناعات . فقد كان ميلياس Mylias مثلاً هو المشرف على مصنع الأسلحة الذي يمتلكه دموستين ؛ وأصبح پاسيون ، وفورميو أغنى رجال المصارف في أثينة . وكان أهم الأعمال التي تظهر قيمة العبد المحرر هي الأعمال التنفيذية ، وذلك لأن أقسى الناس على العبيد هو الذي نشأ في ظل العبودية ولم يعرف طول حياته إلا الظلم والاستبداد .

وكان من تحت هذه الطبقات الثلاث - طبقات المواطنين والغرباء والمعائيق - عبيد أتكا البالغ عددهم ١١٥٠٠٠ عبد(*) . وهؤلاء العبيد إما أسرى حرب ، أو ضحايا غارات الاسترقاق ، أو أطفال أُنقلدوا وهم معرضون في العراء ، أو أطفال مهملون ، أو مجرمون . وكانت قلة منهم في بلاد اليونان يونانية الأصل ؛ وكان الهليني يرى أن الأجانب عبيد بطبعهم لأنهم يبادرون بالخضوع إلى الملوك ، ولهذا لم يكن يرى في استعباد اليونان لهؤلاء الأجانب ما لا يتفق مع

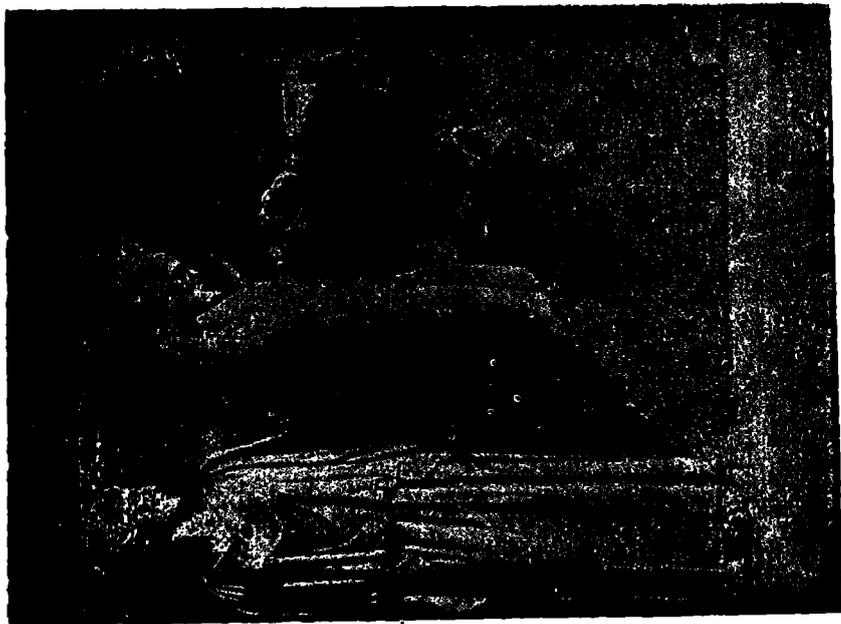
(*) ومرجعنا في هذا الرقم هو *Comme* . وربما كان عددهم أكبر من هذا كثيراً : *Suidas* يقدر عدد العبيد للذكور وحدهم بمائة وخمسين ألفاً (٣٤) . وهذا في تقديره هذا هل خطبة معزوة إلى هيريدس ألقيت في عام ٣٢٨ ، وإن لم تكن نسبتها إليه . ووفقاً بصحتها . ويقول أثينوس ، وهو من لا يعتمد كثيراً على أوالم ، إن تعداد سكان أتكا قلبي أجزاء دمتريوس فاليريوس حوالي عام ٣١٧ يقدر المواطنين بواحد وعشرين ألفاً ، والغرباء بمئتين ألفاً ، والمحررين والأرقاء بأربعمائة ألف . ويقدر تيميوس حوالي عام ٣٠٠ عبيد كورنثة بأربعمائة وستين ألفاً ، ويقدر أرسطو حوالي عام ٣٤٠ عبيد إيجينا بأربعمائة وسبعين ألفاً (٣٥) . ولعل السبب في ضخامة هذه الأعداد أنها تشمل العبيد اللذين كانوا يمرضون للبيع عرضاً مؤقتاً في أسواق الرقيق القائمة في كورنثة ؛ وإيجينا وأثينة .

العقل ؛ لكنه كان يغضبه أن يُسرق يوناني . وكان التجار اليونان يشترون العبيد كما يشترون أية سلعة من السلع ، ويعرضونهم للبيع ، في طشيوز ، وديلوس ، وكورنثه ، ولجينا ، وأثينة ، وفي كل مكان يجدون فيه من يشتريهم . وكان النحاسون في أثينة من أغنى سكانها الغريباء ؛ ولم يكن من غير المؤلف في ديلوس أن يباع ألف من العبيد في اليوم الواحد ؛ وعرض سيمون بعد معركة يوريمدون عشرين ألفاً من الأسرى في سوق الرقيق^(٣٦) . وكان في أثينة سوق يقف فيه العبيد متأهبين لأن يفحص عنهم وهم مجردون من الثياب ، وأن يساوم على شرائهم في أى وقت من الأوقات . وكان ثمنهم يختلف من نصف مينا إلى عشر مينات (من ٥٠ ريالاً أمريكياً إلى ألف ريال) . وكانوا يشترون إما لاستخدامهم في العمل مباشرة ، أو لاستثمارهم ؛ فقد كان أهل أثينة الرجال منهم والنساء يجدون من الأعمال المربحة أن يبتاعوا العبيد ثم يؤجروهم للعمل في البيوت أو المصانع ، أو المناجم . وكانت أرباحهم من هذا تصل إلى ٣٣ في المائة^(٣٧) . وكان أفقر المواطنين يمتلك عبداً أو عبيدين ؛ وبرهن إسكينز Aeschines على فقره بالشكوى من أن أسرته لا تمتلك إلا سبعة عبيد ؛ وكان عددهم في بيوت الأغنياء يصل أحياناً إلى خمسين^(٣٨) ، وكانت الحكومة الأثينية تستخدم عدداً منهم في الأعمال الكتابية وفي خدمة الموظفين ، وفي المناصب الصغرى ، وكان منهم بعض رجال الشرطة . وكان كثيرون من هؤلاء يحصلون من الدولة على الملابس ، وعلى « مكافأة » يومية مقدارها نصف درخمة ، وكان يؤذن أن يسكنوا حيث يشاءون .

أما في الريف فكان العبيد قليلى العدد ، وكانت كثرة الرقيق من النساء الخاديات في البيوت . ولم يكن الأهلون في شمالي بلاد اليونان وفي معظم البالوونيز في حاجة إلى العبيد لاستغنائهم عنهم برقيق الأرض . وكان العبيد في كورنثه ، ومجارا ، وأثينة ، يؤدون معظم الأعمال اليدوية الشاقة ، كما كانت الجوارى يقمن بمعظم الأعمال المنزلية المجهدة . ولكن العبيد كانوا فوق ذلك يقومون



(شكل ٢٦) لوحة دستارآك متحف ألبنة



(شكل ٢٧) موزل وأطلس بن ميكل زيوس في متحف أولبيا

يجزء كبير من الأعمال الكتابية وبمعظم الأعمال التنفيذية في الصناعة ، والتجارة ، والشئون المالية . أما الأعمال التي تحتاج إلى الخدمة فكان يقوم بها الأحرار والمحروون ، والغرياء ، ولم يكن هناك عبيد علماء كما ترى فيما بعد في العصر الهلنستي وفي رومة ، وقلمًا كان يسمح للعبد بأن يكون له أبناء لأن شراء العبد كان أرخص من تربيته . وكان العبد إذا أساء الأدب ضرب بالسوط ، وإذا طلب للشهادة عذب ، وإذا ضربه حرلم يكن له أن يدافع عن نفسه ، لكنه إذا تعرض للقسوة الشديدة كان له أن يفر إلى أحد الهياكل ، ثم يلزم سيده ببيعه ، ولم يكن يحق لسيده بأية حال أن يقتله ، وكان يلقي من الضمانات ؛ ما دام يعمل ، ما لا يلقاه كثيرون ممن لا يسمون عبيداً في بعض الحضارات الأخرى . فكان إذا مرض ، أو تقدمت به السن ، أو لم يجد عملاً يقوم به ، لا يلقي به سيده إلى الإعانات العامة ، بل كان يستمر في رعايته . وإذا كان وفيّاً وعامل معاملة الخادم المخلص الأمين التي تكاد تضارع معاملة أى فرد من أفراد الأسرة ، وكثيراً ما كان يسمح له بأن يقوم بعمل خارجي على شريطة أن يؤدي لسيده بعض ما يكسب من هذا العمل . وكان يعفى من الضرائب ومن الخدمة العسكرية ؛ ولم يكن شيء في ثيابه يميزه من الحر في أثينة خلال القرن الخامس قبل الميلاد . وهاهو ذا « الأبركسي القديم » يشكو في نشرة له عن نظام الأثينيين من أن العبد لا يفسح الطريق في الشارع للمواطنين ، ومن أنه يتكلم بجرية ، ويتصرف في كل صغيرة وكبيرة كأنه كفاء للمواطن^(٣٩) . واشتهرت أثينة بحسن معاملة عبيدها ، وكان من المعروف أن العبيد في أثينة الديمقراطية أحسن حالاً من الأحرار الفقراء في الدويلات الأبركسية^(٤٠) ، وكانت ثورات العبيد نادرة في أتكا وإن كانت مما يخشى وقوعه القائمون بالأمر فيها^(٤١) .

ومع هذا فإن ضمائر الأثينيين لم تكن ترتاح إلى وجود الرق في بلدهم ، وإن الفلاسفة الذين يدافعون عن هذا النظام ليظهرون في وضوح لا يكاد (٦ ج - ٢ - ٢ - مجلد ٢)

يقول عن وضوح من ينددون به . أن ما طرأ على الأمة من تطور أخلاقي قد جعلها أرق من نعمها الاجتماعية . فهاهو ذا أفلاطون يندد باستعباد اليونان لليونان ، ولكنه فيما عدا هذا يقر الاسترقاق بحجة أن لبعض الناس عقولا غير ممتازة^(٤٢) . وينظر أرسطو إلى العبد على أنه آلة بشرية ، ويظن أن الاسترقاق سيبقى في صورة ما حتى يحل اليوم الذي تؤدي فيه الآلات التي تلور بنفسها جميع الأعمال الحقة^(٤٣) . وليس لدى اليوناني العادي فكرة ما عن الطريقة التي يمكن بها أن تسير أعمال المجتمع. لثقف من غير الرق ، وإن كان هذا اليوناني رجيا بعبيده ؛ فهو يشعر بأنه إذا أريد إلغاء الرق ، وجب إلغاء أثينة من الوجود . أما غيره فأكثر تطرفاً في آرائهم ، فالفلاسفة الكليون يحكمون على الرق أسوأ حكم ، ومثلهم في هذا خلفاؤهم الرواقيون وإن كانوا أقل عنفاً في حكمهم عليه . وكثيراً ما يثير يورپديز عطف مستمعيه بما يصوره لهم من حال أسرى الحرب . ويطوف السيد ماس السوقسطائي بلاد اليونان يبشر فيها بعقائد روسو في ألفاظ تكاد تكون ألفاظ روسو بعينها دون أن يتعرض له أحد بسوء : « لقد بعث الله الناس في العالم أحراراً ، ولم يجعل الطبيعة أحد الناس عبداً^(٤٤) » . لكن الاسترقاق ظل قائماً رغم هذا كله ؛

الفصل الخامس

حرب الطبقات

كان استغلال الإنسان للإنسان في أثينة وطيبة أقل قسوة منه في اسبارطة ورومة ؛ ولكنه كان على أية حال استغلالاً يؤدي الغرض المقصود منه . فلم يكن بين الأحرار في أثينة طوائف ممتازة وأخرى غير ممتازة ، وكان في مقدور الرجل أن يرقى بجهوده وحدها إلى أية مرتبة في الحياة ، ولم يكن فيها تمييز ظانق شديد بين العامل وصاحب العمل ، اللهم إلا في المناجم ؛ أما في غيرها فكان صاحب العمل يشتغل إلى جوار عماله ، وكان التجار والشخصى بين الاثنين يفل من حدة سلاح الاستغلال ، وكان أجر الصناع خميماً ، إلا القليل النادر منهم ، أيا كانت طبقتهم ، هو درخمة للرجل في كل يوم من أيام العمل^(٤٥) ، أما العمال غير الحاذقين فقد تنخفض أجور الواحد منهم إلى ثلاث أبولات في اليوم (نصف ريال أمريكي^(٤٦)) . ولما نما نظام المصانع أخذ الأجر بالقطعة يحل محل المياومة وبدأت الأجور تختلف اختلافاً كبيراً ، وكان في وسع المفاوض أن يستأجر العبيد من سادتهم بأجر يتراوح بين أبولة واحدة وأربع أبولات في اليوم^(٤٧) . وفي وسعنا أن نقدر القوة الشرائية لهذه الأجور إذا وازنا الأثمان في بلاد اليونان بأمثالها في بلادنا^(*) ، لقد كان البيت والضيعة في عام ٤١٤ يباعان معاً بألف وماتى درخمة ، وكان المنتموس Mendimmus أى البشل والنصف من الشعير يباع بدرخمة واحدة في القرن السادس ، وبخمس درخمت في أيام الإسكندر ، وكان الخروف يباع بدرخمة في أيام صولون ، وبعشر درخمت أو عشرين في القرن

(٤) يريد في أمريكا . (المترجم)

الخامس^(٤٨) . وكانت النقود المتداولة في أئينة كغيرها من المدن تزيد أسرع مما تزيد البضائع ، ولهذا كانت الأثمان ترتفع ؛ فكانت أثمان السلع في آخر القرن الرابع خمسة أمثال ما كانت في بداية القرن السادس ؛ وقد تضاعفت هذه الأثمان ضعفين من عام ٤٨٠ إلى ٤٠٤ ثم تضاعفت مرة أخرى من ٤٠٤ إلى ٣٣٠^(٤٩) .

وكان في وسع الرجل الفرد أن يعيش عيشة راضية بمائة وعشرين درخمة^{١٢٠} ريال أمريكي (في الشهر^(٥٠)) ؛ ومن هذا نستطيع أن نحكم على حال العامل الذي كان يكسب ثلاثين درخمة في الشهر ويعول أسرة . ولسنا ننكر أن الدولة كانت تبادر إلى معاونته في الأزمات الشديدة فتعده بالحبوب بضمن اسمي ؛ ولكنه كان يشاهد أن ربة الحرية ليست صديقة لربة المساواة ، وأن الشرائع الحرة في أئينة كانت تمكن القوي من أن يزداد قوة ، والغنى من أن يزداد غنى ، أما الفقير فكان يبقى في ظلها^(*) فقيراً^(٥١) .

ومن الحقائق المعروفة أن الفردية تحفز القادرين إلى العمل ، وتنزل بالسذج ، وأنها تنشئ الثروات الضخمة ، وتركزها تركيزاً وخيم العاقبة ؛ ولذلك كان المهرة الحاذقون في أئينة ، كما كانوا في غيرها من الدول ، يحصلون من البروة كل ما يستطيعون تحصيله ؛ ثم يحصل أوساط الناس ما يتبقى من هؤلاء . وكان مالك الأرض يفيد من ارتفاع ثمن أرضه المطرد ؛ وكان التاجر لا يدخر جهداً ، رغم ما فرض عليه من القيود التي لا تحصى لاحتكار الأصناف أو ابتياع كل ما هو معروض منها في الأسواق ثم التحكم في أثمانها على هواه . وكان المضارب ينال حصة الأسد من أرباح الصناعة

(*) ولا حاجة إلى القول بأن الثروات العظيمة عند اليونان الأقدمين تعد متواضعة إذا درت بمعايير هذه الأيام ، فقد قيل إن كلياس أغنى أغنياء الأثينيين كان يمتلك مائتي وزنة^{١٠٠٠} ريال أمريكي (وإن نيشياس كان يمتلك مائة وزنة^(٥٢)) .

والتجارة بفرض سعر مرتفع لفائدة القروض التي يقدمها لأصحاب الصناعات والتجار . وقام زعماء الجماهير المحترقون يبينون للفقراء ما في توزيع الثروة بين الناس من غبن ، ويخفون عنهم عدم المساواة في كفاياتهم من الناحية الاقتصادية ؛ وأخذ الفقير بعد أن أبصر بعينه ثراء المثريين يحس بفقره ويبتل التفتك في ميزاته التي لا يجزى عليها الجزاء الأوفى ، ويحلم بقيام الدول المثالية . ومن ثم كانت الحرب بين طبقة وطبقة ، وهى الحرب التي استمرت نازها في جميع الدول اليونانية ، والتي كانت أشد هولاً من الحرب بين اليونان والفرس ، أو بين أثينة وإسبارطة .

وبدأت هذه الحرب في أتكاً بالنزاع بين الأغنياء المحدثين والأشراف أصحاب الأراضي الزراعية : ذلك أن الأسر الغنية كانت لا تزال تحب الأرض ، وتحب أن تقضى معظم حياتها في ضياعها ، وكان تقسيم الأرض بين الأبناء وأبناء الأبناء خلال الأجيال الطويلة قد قلل مساحة ما يملكه كل واحد منها^(٥١) . (فلم يكن السيديز الثرى مثلاً يملك أكثر من سبعين فدناً) . وكان مالك الأرض في معظم الأحوال يعمل بنفسه في أرضه أو يشرف على إدارة أملاكه ، وكان هذا الشريف فخوراً بنفسه وأصله . وإن لم يكن غنياً بماله ، فكان يضيف اسم أبيه إلى اسمه ليكون ذلك من ألقاب الشرف له ، ويتعد قدر استطاعته عن طبقة التجار الوسطى التي كانت تستحوذ شيئاً فشيئاً على ثروة أثينة التجارية الآخذة في النماء . غير أن زوجته كانت تلح عليه أن يكون له بيت في المدينة لتستمتع بما في العاصمة من الحياة المتنوعة وبما تتيحه من فرص ، وكانت بناته يرغبن في أن يعشن في أثينة ، ليتصيدن هن أزواجاً ثرياً ، وكان أبناؤه يرجون أن يجدوا فيها الخليلات و يقيموا المآدب المرحية كما يفعل الأغنياء المحدثون . وإذ لم يكن في مقدور الأشراف ملاك الأراضي أن ينافسوا التجار والصناع في ترفهم فقد رضوا بهم أو بأبنائهم أزواجاً لأولادهم وبناتهم ، وكان هؤلاء التجار والصناع راغبين في أن يتسمنوا ذرى

المجد مستعدين للبدل . وكانت نتيجة هذا اتحاد الأغنياء بأرضهم مع الأغنياء بالملم وتكوين طبقة عليا الحركية ، يحسدها الفقراء ويحقدون عليها ، ويفضونها الإقراط في الديمقراطية وتخشى على نفسها من الثورة .

وكان صلف الأثرياء الجدد هو الذي أدى إلى المرحلة الثانية من مراحل حرب الطبقات — أى نزاع المواطنين الفقراء مع الأغنياء . ذلك أن كثيرين من أفراد الطبقات الوسطى الرأسمالية أخذوا يباهون مثل ألسيديز بترائمهم وإن لم يكن من بينهم إلا القليلون الذين يستطيعون أن يسخروا «جمهرة الكادحين» بجرأتهم الروائية ورشاقة مظهرهم ورقة حديثهم . وقام الشبان الذين أحسوا بما وهبوا من كفايات يحول فقرهم دون إبرازها والإفادة منها ، فنقلوا حاجتهم الشخصية إلى الفرص والمكانة السامية من دائرتهم الخاصة إلى نداء عام بالثورة ، وتكفل المتعلمون الذين يرحبون بالأراء الجديدة ويستهوهم هتاف المظلومين بصياغة أغراض ثورتهم إليهم^(٥) . ولم يكونوا يتنادون باشتراكية التجارة والصناعة ، بل كانوا يطلبون إلغاء الديون وإعادة توزيع الأراضي على المواطنين ، ونقول على المواطنين لأن الحركة المتطرفة التي قامت في أئينة في القرن الخامس لم يشترك فيها إلا من لهم حتى الانتخاب من الفقراء ، ولم تكن تحلم في هذه المرحلة بتحرير العبيد ، أو إعطاء الغرباء نصيباً من الأرض التي تطالب بإعادة توزيعها . وكان الزعماء يتحدثون عن الماضي الذهبي حين كان الناس جميعاً متساوين فيما يملكون ، ولكنهم لم يكونوا يريدون أن تؤخذ أقوالهم بنصها حين يتحدثون عن عودة هذا الفردوس المفقود ، بل كانت الصورة المرسومة في أذهانهم صورة مجتمع اشتراكي أرسقراطي — لا ينطوى على تأميم الأرض بل ينطوى على توزيعها بالتساوى بين المواطنين . وكانوا يشيرون إلى أن المساواة في الحقوق السياسية ستكون بلا ريب مساواة غير حقيقية مع وجود تلك الفوارق الاقتصادية.

المطرودة الزيادة ، ولكنهم كانوا مصممين على استخدام ما للمواطنين الفقراء من سلطان سياسي لحمل الجمعية على أن تضع في جيوب المحتاجين — بالفراكت ، والتكاليف ، والمصادرة ، والأشغال العامة^(٥٥) — بعض الثروة المركزة لدى الأغنياء^(٥٦) . واتخذوا اللون الأحمر رمزاً لثورتهم فضربوا بذلك المثل للثائرين في مستقبل الأيام^(٥٧) .

وواجه الأغنياء هذا التهديد فألقوا من بينهم هيئات سرية تعهدوا فيها أن يعملوا مجتمعين لمقاومة ما يسميه أفلاطون -- رغم نزعه الشيوعية -- «الوحش الضار» الكامن في نفوس الغوغاء المستنفرين الجياح^(٥٨) . وانتظم العمال الأحرار أيضاً — وكانوا قد انتظموا منذ أيام صولون إن لم يكن قبله — في نواد (لرانونى ، ثياسوى eranoi, thiasoi) للبنائين ، وقاطعى الرخام ، وعمال الخشب ، والعمالين في العاج أو الفخار ، والسماكين ، والممثلين ومن إليهم من الجماعات . وكان سقراط نفسه عضواً في نادى المثالين^(٥٩) (*). بيد أن هذه الجماعات لم تكن نقابات عمال بقدر ما كانت جماعات لتبادل المنفعة ، فكان أعضاؤها يجتمعون في أماكن لم يسمونها بجامع مقدسة ، يقيمون فيها المآدب والألعاب ، ويعبدون فيهم رباً يحميهم ، ويقدمون المال للمرضى من الأعضاء ، ويتعاقدون مجتمعين على القيام بمشروع خاص ، ولكنهم لم يشتركوا اشتراكاً ملحوظاً في حرب الطبقات الأثينية . ودارت المعركة في ميدانى الأدب والسياسة ، فشرع مصدرى النشرات أمثال «الأجرسكى القديم» يصدرن النشرات ينددون فيها بالديمقراطية أو يدافعون عنها . وإذا كانت مسرحيات الشعراء الهلليين تطاب أراى الأغنياء

(٥) انتظم المثالون والمهندسون المماريون في بلاد اليونان و «انافة لهم هى طائفة البنائين كانت لها شمالها الدينية الخلفية الخاصة بها ، وكانوا هم أسلاف جماعة البنائين الأحرار (المثون) التى قامت في أوروبا فيما بعد .

إخراجها ، فقد انضم هؤلاء إلى جانب ذوى المال ، وشرعوا يصبون
قوارص سخرياتهم على الزعماء المتطرفين وعلى دولهم المثالية . فترى
أرسطوفان يقدم لنا فى مسرحية الإكلزيازوسى Ecclesiazusae (٣٩٢)
السيدة بركساغورا Praxagora الشيوعية تلتى خطبه تقول فيها : « أريد
أن يكون لكل الناس نصيب فى كل شيء ، وأن يكون كل الملك مشاعاً ؛
فلن يكون بعد اليوم أغنياء أو فقراء ؛ ولن نرى بعد الآن رجلاً واحداً يبنى
محصول مساحات واسعة من الأرض وإلى جانبه رجل آخر لا يجد منها ما يتسع
لدفنه وسأعمل على ألا يكون فى الحياة إلا ظروف واحدة بشارك
فيها جميع الناس على السواء وسأبدأ بأن أجعل الأرض والمال
وكل ما هو ملك خاص مشاعاً بين الناس أجمعين وستكون النساء
ملكاً مشتركاً للرجال » . ويسأل بلپيروس Blepuros : « ولكن العمل من
يقوم به ؟ فتجيبه بقولها : « العبيد » . وفى ملهاة أخرى هى ملهاة بلوتوس
Plutus (٤٠٨) يميز أرسطوفان للملكية المهتدة بالانقراض أن تدافع عن
نفسها بقولها إنها هى الحافظ الذى لا بد منه للكدرح البشرى والمغامرة . « أنا
السبب الوحيد فى كل ما بكم من نعمة ، وإن سلامتكم لتعتمد علىّ دون
غيرى ومنذا الذى يجب أن يطرق الحديد وينبى السفن ، ويحيط
التياب ، ويحرق الخشب ، ويقطع الجلد ، ويحرق الآجر ، ويبيض التيل ،
ويديغ الجلود ، ويشق الأرض بالحرث ، ويبنى ثمار دمر إذا كان فى
وسعه أن يعيش بغير عمل محزرا من كل هذه المشاق . . . ؟ فإذا ما طبق
نظامك (الشيوعية) . . . فلن تستطيع أن تنامى فى سرير ، لأن الأسرة فى
هذه الحال لن يصنع منها شيء بعد ، ولن تفسج بسطاً ، وهل فى الناس
من يرضى أن ينسجها إذا كانت لديه الذهب ؟ (٦٠) .

وكانت إصلاحات إفيلتيز وبركليزياكبورة ثمار الثورة بالمقراطية . وكان بركليز

رجلا منزلاً في أحكامه معتدلاً في أغراضه ؛ فهو لم يكن يبغى القضاء على الأغنياء ، بل كان يريد أن يحتفظ بهم ويأقدهمهم على الأعمال النافعة بتخفيف عبء الحياة عن الطبقات الفقيرة ؛ فلما مات في عام ٤٢٩ جرف تيار التطرف الديمقراطي الأثينية إلى حد لم يسع الحزب الأبركي معه إلا أن ياتمر مرة أخرى مع اسبارطة ، وأن يدفع الأغنياء إلى الثورة مرة في عام ٤١١ ومرة أخرى في عام ٤٠٤ . بيد أن الثروة في أثينة كانت عظيمة ، وكان خوف المواطنين من ثورة الأرقاء سبباً في وقف تيار ثورتهم إلى حين ، ولهذا كانت حرب الطبقات في أثينة أهدأ منها في غيرها من الدول اليونانية ، حيث لم يكن للطبقات الوسطى من القوة ما يمكنها من أن تتوسط بين الأغنياء والفقراء ، وسرعان ما وجدت الطبقات في أثينة أساساً صالحاً لتقيم عليه أساس التراضي فيما بينهما . ففي ساموس استولى المتطرفون على زمام الحكم في عام ٤١٢ ، وأعدوا مائتين من الأشراف ، ونفوا أربعمائة آخرين ، وقسموا الأرض والبيوت فيما بينهم^(٦٦) ، وأقاموا مجتمعاً آخر شبيهاً بالمجتمع الذي قضوا عليه . وفي ليونتيني طرد العامة في عام ٤٢٢ الأقلية المثرية الحاكمة ، ولكنهم سرعان ما لاذوا هم أنفسهم بالفرار . وفي كورسيرا اغتالت الأقلية المثرية الحاكمة ستين من زعماء حزب الشعب ، واستولى الديمقراطيون على أزمة الحكم ، وزجوا بأربعمائة من الأشراف في السجون ، وساقوا خمسين منهم إلى الحاكمة أمام هيئة نستطيع أن نسميها « لجنة الأمن العام » ، وأعدوا الخمسين كلهم في التو والساعة ، ولما رأى المسجونون الأحياء ما حل بزملائهم قتل بعضهم بعضاً ، وحوصر الباقون منهم في هيكل المدينة الذي لجأوا إليه حتى هكأوا من الجوع . ويصف توكينديديس حرب الطبقات في بلاد اليونان وصفاً ينطبق على حروب الطبقات في جميع الأوقات يقول فيه :

« ظل أهل كورسيرا سبعة أيام طوال يلذخون من مواطنيهم من يرون أنهم

أعداء لهم ؛ ومع أن الجريمة المعزوة إليهم كانت أنهم حاولوا القضاء على الديمقراطية ، فإن منهم من قتل بسبب الكراهية الشخصية . ومنهم من قتلهم المدينون لم يتخلصوا بقتلهم من ديونهم . وهكذا أنتشر الموت في البلد بجميع أشكاله ، وحدث في هذا الوقت ما يحدث في أمثاله فلم يقف العنف عند حد . كان الآباء يقتلون أبناءهم ، وكان الأثلاثون بالميكال يسحبون على وجوههم من فوق مذبح القربان أو يقتلون . . . وهكذا جرت الثورة في مجراها منتقلة من مدينة إلى مدينة ، وسارت الأماكن التي وصلت إليها في آخر الشوط فيما اخترعته من وسائل العنف وفيما ارتكبه من الفظائع في انتقامها من خصومها إلى أبعد مما سارت إليه الأماكن التي تقدمتها بعد أن سمعت بما كان يجري في هذه الأماكن السابقة . . . وضربت كرسيرا لسائر المدن المثل الأول في تلك الجرائم ، . . . وفي حروب الانتقام التي لجأ إليها المحكومون . . . الذين لم ينعموا في حياتهم بالعدالة في المعاملة . . . بل لم يلاقوا من بحكامهم شيئاً سوى العنف ، وذلك حين جاء دورهم وتولوا هم شئون الحكم . كذلك ضربت كرسيرا لسائر المدن المثل الأول في الحقد الظالم الذي تنطوى عليه صدور الذين يريدون أن يتخلصوا مما ألفوه من فقر وتمتلئ صدورهم طمعاً فيما في أيدي جيرانهم من نعم ، وضربت المثل أكثر من هذا وذلك للإفراط في الوحشية والقسوة التي اندفع إليها بعواطفهم الثائرة رجال لم يبدأوا الكفاح بروح طائفية بل بروح حزبية . . . وفي غمار هذه الفوضى التي تردت فيها الحياة في المدن كشفت الطبيعة البشرية ، التي تثور دائماً على القانون والتي أصبحت الآن سيدة القانون ، عن عدم قدرتها على ضبط عواطفها ، وعن أنها لا تقيم وزناً للعدالة ، وعن عدائها لكل سلطة علينا . . . وأصبحت المرأة والواقحة في نظر الناس شجاعة تُرثصى من حليف وفي ؛ كما أصبح الردد الحكيم جنباً مموهاً ؛ وأضحى الاعتدال

في نظر الناس ستاراً يخفي وراءه خور العزيمة ؛ والقدرة على رؤية جميع نواحي مسألة من المسائل عجزاً عن العمل في واحدة منها . . .

وكان مصدر هذه الضرور كلها هو البحرى وراء السلطان المنبث من الشره والطمع . . . واندفع الزعماء في المدن يطلبون لأنفسهم الجزء الأوفى من المنافع العامة التي يتظاهرون بالحرص عليها مستعينين على ذلك بأجل العبارات التي يلقونها في الآذان ، يدعون فيها إلى المساواة السياسية بين الناس تارة ، وبضرورة قيام أرسقراطية معتدلة تارة أخرى : ولم يكن هؤلاء يرددون في استخدام أية وسيلة توصلهم إلى السلطان ، فكانوا لذلك يرتكبون أشنع الجرائم . . . ولم تكن ضاعة من الطائفتين المقتلتين توقر الدين ، وكان استخدام العبارات المنمقة للوصول بها إلى الغايات الإجرامية هو الوسيلة المحببة لسائر الناس . . . وكانت البساطة القديمة التي كان للشرف فيها أكبر نصيب موضع السخرية ، ومن أجل هذا لم يعد لها وجود ، وانقسم المجتمع إلى معسكرين لا يثق فيهما واحد من الناس بزميله . . . وقضى بين هذين المعسكرين على الشيعة المعتدلة من المواطنين لأنها لم تشترك في الكفاح أو لأن الحسد كان يمنعها أن تفر من الميدان . . . وقصارى القول أن العالم الهلنى كله قد زلزلت قواعده وتصدعت أركانه (٦١) .

ولم تقض هذه الاضطرابات على أثينة لأن كل أثينى كان في قرارة نفسه فردى النزعة يحب الملكية الخاصة ؛ ولأن الحكومة الأثينية قد وجدت في تنظيم الثروة والأعمال التجارية والصناعية تنظيماً معتدلاً طريقة عملية وسطاً بين النزعتين : الاشتراكية والفردية . ولم تخش الحكومة الإقدام على هذا التنظيم ووضع القواعد والقيود ، فوضعت حداً أعلى لهائلات العرائس ؛ ونفقات الجنائز ، وملابس النساء (٦٢) . وفرضت الضرائب على التجارة وأخذت منها لإشرافها ، ووضعت أنظمة عادلة للمقاييس والموازين . أرمم الناس : اعاءة واجب الأمانة والشرف على قدر ما تستطيع الحكومات أن تمد من دناة

الطبيعة البشرية^(٦٦) . وحددت الحكومة مقادير الصادرات ، وسنت قوانين صارمة للحد من جشع التجار والصناع ومعاقتهم على ما يرتكبون ، وفرضت رقابة شديدة على تجارة الحبوب ؛ وأصدرت قوانين صارمة لمنع تخزين السلع والتحكم في الأسواق ، فحرمت شراء أكثر من خمسة وعشرين بُشِلاً من القمح دفعة واحدة وأجازت الحكم بالإعدام على من يرتكب هذه الجريمة . ومنعت إقراض المال على البضائع الخارجة من البلاد إلا إذا حملت السفن في عودتها حبوباً إلى ثغرية ؛ وأوجبت على السفن المملوكة لأهل أثينة والمشحونة بالحبوب أن تأتي بحمولتها إلى بيرية ؛ ومنعت تصدير أكثر من ثلث الحبوب التي تصل إلى هذا الثغر^(٦٧) . وحرصت أثينة أشد الحرص على ألا ترتفع أسعار الخبز فوق طاقة المستهلكين ، وألا يثرى الناس إثراء فاحشاً من جراء جوع الشعب ، وألا يموت أحد من الأثينيين جوعاً ، وكانت وسيلتها إلى هذا الاحتفاظ برصيد كاف من الحبوب في مخازن تملكها الدولة ، وإغراق السوق بهذه الحبوب المخزونة حين ترتفع الأسعار ارتفاعاً سريعاً^(٦٨) . ووضعت الدولة قواعد تنظم بها الثروة عن طريق الضرائب والخدمات العامة ، وأقنعت الأغنياء أو ألزمتهم أن يتبرعوا بالمال إلى الأسطول وإلى دور التمثيل ، وأن يقدموا للدولة المال الذي تساعد به الفقراء من الوجهة النظرية على مشاهدة المسرحيات والألعاب . وفيما عدا هذا كانت أثينة تحمي حرية التجارة ، والملكية الفردية ، وفرص الكسب ، لاعتقادها أنها هي الأدوات الضرورية للحرية الإنسانية ، وأنها أقوى حافز على النشاط الصناعي والتجاري ، وأكبر عامل على ازدياد الرخاء .

وبفضل هذا النظام ذي النزعة الاقتصادية الفردية ، تخفف من حدتها

النظم الاشتراكية ، ازدادت الثروة في أثينة وانتشرت فيها انتشاراً يحول بينها وبين الثورة المتطرفة ، وبذلك ظلت الملكية الفردية آمنة في أثينة إلى آخر أيامها . وتضاعف فيها بين عامى ٤٨٠ و ٤٣١ عدد الموظفين ذوى الدخل الذى يمكنهم من العيش الرضى^(٦٩) ؛ وزادت إيرادات الدولة ، وارتفعت نفقاتها ، ولكن خزانتها ظلت عامرة أكثر مما كانت في أى عهد سابق من تاريخ اليونان ، ووضعت الدعامة الاقتصادية لحرية أثينة ، ونشاطها الصناعى والتجارى ، والفنى ، والفكرى ، واستطاعت أن تتحمل كل ما ساد العصر الذهبى من إسراف دون أن تنوء به إذا استثنينا من هذا التعميم الحرب التى خربت بلاد اليونان بقضها وقضيضها .